العالم الفكري للشيخ البلاغي

الشيخ د. جعفر المهاجر

بُغيتي في هذا أن ألِمّ إلماماً بالعالَم الفكري لهذا الكبير الذي جمعنا اليوم . يعني حوافزه ومُحرّكاته للعمل ، وأهدافه وغاياته ، وطرائقه ومناهجه . و هو مطلب ليس سهلاً ، حين يكون موضوعه رجلاً ترك خمسة وأربعين مؤلفاً ، بين كتاب كبير ورسالة صغيرة . تنوّعت موضوعاتها، بين أبحاث فقهيّة ، وأخرى عقيديّة وردود ، وتفسير . وابتدع فيما صنف أساليب خرج بها عن المألوف . كما أنه خرج على التقاليد الفكريّة والدراسيّة لبيئته . ومن ذلك أنه درس لغتين أجنبيتين فيما يُقال . ومع ذلك فإن هذه الصعوبات هي ما يجعل الموضوع أكثر إغراءً بالنسبة للباحث .

والشيخ البلاغي هو نَبتُ " النجف " ، التي كانت في زمانه ما تزال تنعُم بآثار الحضور البهي لثلاثة من كبار أعلامها في القرن الثالث عشر للهجرة / التاسع عشر للميلاد . هم على التوالي : السيد محمد مهدي بحر العلوم (ت : ١٢١٢ هـ) والشيخ جعفر بن خضر الجناجي (ت : ١٢٢٧ هـ) والشيخ محمد حسن النجفي (ت : ١٢٦٦ هـ) . والأول من الثلاثة إيراني الأصل ، يضرب بأعراقه إلى مدينة " بروجرد " ، أمّا الآخران فهما عربيّان ، ينتميان إلى العشائر العراقيّة القاطنة في وسط وجنوب " العراق " . والأمر الجامع بين الثلاثة ، فضلاً عن حضورهم الشخصي الفكري والسياسي ، أنهم جميعاً أسّسوا ثلاثة من الأسرات ، التي أنجبت العشرات من العلماء والأدباء المعارف . هم آل بحر العلوم ، وآل كاشف الغطاء وأبناء عمومتهم آل الشيخ راضي ، وآل الجواهري . هذه الأسرات التي ظلّت تُمسك بمقاليد الحياة الأدبيّة ، وإلى حدّ كبير الفكريّة ، في " النجف " ، مدّة قرن ونصف . إلى أن ارتكب طاغية " بغداد " جريمة تدميرها تدميراً مقصوداً ومنهجيّاً .

والحقيقة التي ينبغي أن تُذكَر هنا ، أن صعود " النجف " هو فرع ونتيجة لصعود نجم التشيّع في " العراق " ، بتحوّل العشائر النازحة من أنحاء " شبه

الجزيرة " إلى التشيّع . وهو تحوّل له أبعد الأثر في تاريخ هذا البلد وما يزال . ففي القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد حصلت هجرات كبيرة للعشائر من تلك المناطق . و هي حركة تاريخيّة لها معنى الإيقاع الثابت . تكرّرت كثيراً في التاريخ القديم والحديث . ولكنها أخذت هذه المرّة شكل انفجار سكّاني ، بسبب الفتن العنيفة التي نشأت مع صعود الحركة الوهابيّة وتداعياتها . وأدّى إلى هروب كثير من العشائر من مواطنها التاريخيّة . لتنزل غرب وجنوب " العراق " . ومع الوقت أخذت تتحوّل بكثافة إلى التشيّع . وتُشارك بحماسة في المراسم والشعائر الحسينيّة . وفي هذا الإطار نشأت زيارة الأربعين لمرقد الإمام الحسين عليه السلام في "كربلاء" ، وتقاليد المواكب الحسينيّة فيها . التي ظلّت لمدة عشرات السنين من بعدُ المنفذ الوحيد للشيعة للتعبير عما ينالهم من اضطهاد سياسي وتهميش اجتماعي . المهم ، بالنسبة لبحثنا ، أن تلك الهجرات هي أكبر تغيّر في الصورة السّكانيّة لـ " العراق " في العصر الحديث .

هو ذا ما منح "النجف" قوّة تمثيليّة واسعة . وجعل منها حتى دخول الانكليز والحكم الهاشمي في الصورة السياسيّة للبلد قوة اجتماعيّة وفكريّة هائلة . و هذا هو الأساس الذي برز أولئك الأعلام الثلاثة على قاعدة منه . ولا يفوتنا أن نذكر أن اثنين منهما ينتميان إلى تلك العشائر . ثم أيضاً وأيضاً هوذا ما منح "النجف" أن تؤدّي الدور الأساسي ، إن لم يكن الوحيد ، في التصدّي للاحتلال الانكليزي لـ " العراق " . فخرج العلماء من "النجف" و "كربلاء" إلى " البصرة" ونواحيها بالمئات مُحرّضين ومقاتلين . ثم قادوا ثورة " النجف " على الاحتلال الانكليزي سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨ م ، ثم بعد سنتين ثورة ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م الكبرى .

يجدر بنا هنا أن نقول ، أن الشيعة حملوا آنذاك وحدهم عبء مقارعة الاحتلال الانكليزي لبلدهم . أمّا المسلمون من غيرهم فقد قبعوا ساكنين ، وكأن الأمر لا يعنيهم. مع أنهم ، من بين أطياف الشعب العراقي ، كانوا الخاسرين بامتياز بالقضاء على الحكم العثماني . وكأنهم كانوا يُقدّرون أو يعرفون أن الأمور ستأول إليهم في

النهاية . وقد تكرّرت هذه السياسة بالآليّة نفسها مع الاحتلال الأميركي قبل سنوات . والتفاصيل معروفة .

عندما اجتاح الغُزاة الانكليز "العراق" كان الشيخ البلاغي في "سامراء" ، مُلتحقاً بأستاذه الشيخ محمد تقي الشيرازي ، الذي سيقود ثورة العشرين بعد سنتين . فخرج منها مع مَن خرج من العلماء ، لعلم هؤلاء بأنهم لن يلقوا من المحتلّين إلا ما يكرهون . وهم الذين حرّضوا عليهم وقاتلوهم فأثخنوهم . وأقام مدّة سنتين في "الكاظميّة" مع أستاذه ، حيث تابع مع غيره عمله السياسي والتحريضي . الرامي إلى نيل الاستقلال .

أظن أن أفكار الشيخ البلاغي ، التي ملأ بها عدداً من كتبه ، قد نضجت في هذه الفترة . وما أن عاد إلى " النجف" ليستقرّ فيها نهائياً ، حتى انصرف بكليته إلى التصنيف . فكتب (الهدى إلى دين المصطفى) و (الرحلة المدرسيّة أو المدرسة السيّارة) و(أنوار الهدى) و(نصائح الهدى) و(داعي الإسلام وداعي النصارى) و (نسمات الهدى) و (الردّ على كتاب تعاليم العلماء) و(الردّ على كتاب ينابيع الإسلام) و(الشهاب ، في الردّ على كتاب حياة المسيح) . وكلّها في نقد النصرانيّة والفكر الغربي والردّ على كتب المبشرين . لقد أدرك بثاقب نظره أن الاستعمار الانكليزي لن يكون عسكرياً فقط . وإنما سيتحوّل بسرعة إلى غزو فكري . فانبرى له بكل ما يملك . ومَن يقرأ هذه الكتب اليوم ، لن يكون من العسير عليه أن يكتشف الجهد الكبير الذي بذله في سبيل الاطلاع على الأفكار التي عالجها ونقدها وأبطلها في كتبه . وأتمنى أن يكون بين المشاركين في هذا المؤتمر مَن يفرغ للتعريف تعريفاً نقديّاً بأعماله هذه .

والحقيقة التي عايشها الشيخ البلاغي مُنتمياً ومفكراً وكاتباً ، أنه ما إن استقر بالانكليز المقام في مستعمرتهم الجديدة وبسطوا سلطانهم عليها ، حتى شرعوا في عملهم التغييري . الرامي إلى اختراق المجتمع العراقي في العُمق . واختاروا لعملهم هذا أكثر المناطق فقراً وتخلّفاً، أعني الجنوب . فأطلقوا عليه هيئاتهم التبشيريّة ، المُسلّحة بالإمكانيّات والخبرة والتنظيم ، والمدعومة سياسياً ولوجستياً من قِبَل

سلطات الاحتلال . فأنشأوا في مدينة " العمارة " مستشفى ومطبعة ومكتبة ومجلّة ومؤسسات تعليميّة ومؤسسة لنشر الكتب . طفقت تقدّم خدماتها دون مقابل للناس الذين لم يعتنِ بهم أحد في كل تاريخهم المعروف . فكانت تعالج مرضاهم وتعلّم ناشئتهم وتقدّم لهم مختلف أشكال المساعدات بسخاء ما بعده سخاء . ولا تطلب منهم غير حضور القداديس الكبيرة الفخمة التي تُحسن تنظمها . وخلال سنوات قليلة نجحت في كسب أعداد هائلة من أهلها . ولقد حدّثني شاهد عيان أن أحد المبشّرين رفع القرآن بيده في اجتماع حاشد وانهال عليه تمزيقاً دون أن يلقى اعتراضاً من أحد. وهذا دليل على أن هذه الهيئة التبشيريّة اطمأنت إلى أنها نجحت نجاحاً نهائياً في تنصير المنطقة. والغريب أنني بعد البحث لم أجد في كل ما صدر عن " النجف " في ذلك الأوان أدنى دليل على أنها أولت الأمر أدنى اهتمام . مع أن نشاط تلك الهيئات كان علنياً وعلى مدى سنوات . ومع أن ذلك كان ، على الأقلّ ، هجوماً على بيتها ، حيث الكثافة السكانيّة الشيعيّة . ولعلّها فكّرت بطريقة عبد المطلب ، حيث قال : " إن للبيت رباً يحميه " . أقول " لعلّها " ، لأنني لا أسمح لنفسي بأن أتصوّر أنها كانت فاقدة الحسّ أزاء هذا الحدث البالغ الخطورة .

هل عليّ أن أُشير إلى العلاقة بين ما وقفنا عليه من أحداث وبين هموم شيخنا البلاغي الفكريّة . الأمر في غاية الوضوح والجلاء . هوذا رجل نصب من نفسه حارساً يقظاً على شعبه وذاتيّته ، وفي مقدمتها دينة ، فاستلّ قلمه سيفاً صارماً ، مضى يقاتل به دونما هوادة . وإلى ذلك أشار الشاعر السيد محمود الحبوبي في رثائه ، حيث قال من قصيدة :

دأبت بنشر ما سمّيتَ كتباً ... ودين الله سمّاها دروعا
فتى القلم الذي إن صرّ ألقى ... صليل المشرفي له الخضوعا
وإن تحمله مُحتضناً مداداً ... فماذا السيف مُختضباً نجيعا
وإن رضع الدواة ترى شيوخ الضلالة تتقي ذاك الرضيعا

ملمح أخير ممّا يقع تحت عنوان البحث ، تقتضي مني الأمانة له أن أقف عليه . هو موقفه من قضيّة إحياء الشعائر الحسينيّة ، التي انفجرت أواخر أيامه .

على أثر وبسبب ما خرج به العالم الكبير والشجاع السيد محسن الأمين ، الذي أذكر بشدّة ما بعدها شدّة ما تحفل به المجالس الحسينيّة من روايات مُختلقة لا أصل لها . تدخل في باب التهويل الرامي إلى إثارة الشجى واستدرار الدموع . فضلاً عن أعمال تدخل في باب إيذاء النفس من لطم قاسٍ وضرب بالسلاسل وتطبير. وعن تمثيلات هزيلة لا تتناسب مع مقام أهل البيت عليهم السلام . ودعا إلى ترشيد هذه الشعائر ، بما يتناسب مع الغاية منها ، ومع ضرورة التثبّت وطلب الصحّة والصدق ممّا يُتلى فيها ، ولا يتعارض مع المبادئ الشرعيّة .

يومذاك انقسم الناس ، من "لبنان" إلى "الهند" معسكرين . وهذا أمر جيّد وصحّي من حيث المبدأ . ولكن اللغة التي استعملها كثيرون في معارضة السيد الأمين كانت نابية جداً . وارتُكب في حقه ما لا يحلّ . حتى لقد نُبز بـ " السيد محسن الأموي " ، إلى غير ذلك ، وهو كثير .

والحقيقة أنني لم أعثر في كل ما تحت يدي من مؤلفات الشيخ البلاغي على معالجة مباشرة ، يمكن أن نبني عليها اليوم تصوّراً واضحاً لموقفه من هذه الأزمة . وهو بنفسه يصلح أن يكون موضوعاً لتساؤل . فلماذا سكت ولم يُدلِ بدلوه في ذلك المُعترك . وهو الذي عرفناه وعرفنا حراسته اليقظة لأمور الدين ؟ واهتمامه بملاحقة كل ما يجدّ في هذا الباب . خصوصاً أنه في كل ما كتب عبّر عن حالة وعي متقدّمة . ممّا كا يجدُر أن يُحدّد موقعه المُنتظر. هذا تساؤل يبدو أنه سيبقى دون جواب . ولعلّه آثر أن ينأى بنفسه وقلمه عن المستوى غير السليم الذي خاضه بعض الخائضين .